07 NOV 1999
١٢١٢٢
شراء
مكتبة البنين
قسم الدوريات

مجلة كلية الإنسانيات والعلوم الاجتماعية

العدد الحادي والعشرون

١٤١٩ هـ - ١٩٩٨ م

القوس في الشعر الجاهلي والإسلامي

د. سلامة عبد الله السويدي

أستاذ مساعد بقسم اللغة العربية
جامعة قطر

- ١ -

القوس سلاح خطير من أسلحة العرب كان له دوره في السلم والحرب ، حددت مصير كثير من الحروب ، وكانت أداة رئيسية من أدوات الصيد ، وإلى جانب هذا وذاك كانت سلاحا فتاكا في أيدي اللصوص والصعاليك ، وشهر من العرب رماة عرفوا بدقة إصابتهم للهدف أطلق عليهم « رماة الحدق » .

وغدت القوس في حياة العربي رمزاً لمعان كثيرة فاعتد بها العربي أيا اعتداد ، وعادلت عنده في بعض الأحيان الثروة والمال والنفس ، ولعلنا نلمح جانبا من ذلك في قصة حاجب بن زرارة التميمي ، ورهنه قوسه لدى كسرى ، وهي قصة تناقلتها كتب الأدب ، وأشار إليها أبو تمام في مدحته لأبي دلف العجلي إذ يقول[١] :

إذا افتخرت يوماً تميم بقوسها ... وزادت على ما وطدت من مناقب
فأنتم بذي قار أمالت سيوفكم ... عروش الذي استرهنوا قوس حاجب

كما نلمح جانباً آخر في قصة الكسعي « محارب بن قيس » الذي كسر قوسه عجلة وتسرعا ثم ندم فقيل « أندم من الكسعي »[٢] وسارت مثلاً .

وفي الإسلام نقع على غير قول يحث على تعلم الرماية فنقرأ قول الرسول ﷺ :

« إن الله ليدخل بالسهم الواحد الجنة ، صانعه يحتسب فيه الخير ، والرامي به ، والممد به »[٣] وهو قول من أقوال وحديث من أحاديث رويت له .

كذلك نقع على قول عمر - رضي الله عنه : « ارم فإن الرمي عدة وجلادة » وعلى ما كتبه لأمراء الشام يحثهم على تعلم الرمي والمشي بين الغرضين[٤] .

وإذا كان هذا اهتمام العربي بالقوس في واقع حياته ، فما اهتمامه بها في عالم الشعر والفن ؟ وهل حظيت القوس في أقوال الشعراء وأخيلتهم بمثل ما حظيت به في حيواتهم وأيامهم ؟

هذا ما سنحاول استجلاءه في هذا البحث .

- ٢ -

ولقد وقعنا بعد استقرائنا لدواوين الشعراء الجاهليين على ثلاث قصائد مطولة في وصف القوس عدا مقطوعات وأبيات متفرقة كثيرة تتفاوت في الإجمال والتفصيل ، وهو قدر كاف على أية حال وإن قلت فيه القصائد الطوال المفردة للقوس ، وربما كان هذا راجعا إلى أن الشاعر في وصفه للحرب كان معنيا بأسلحة المواجهة التي تبرز الشجاعة والإقدام ، وطبيعي - والأمر كذلك - أن تتأخر القوس في شعر الحرب رتبة ، كما أن الشاعر أيضا في وصف الصيد كان يستغرقه وصف الصيد لا الأداة فتأخرت القوس رتبة أيضا في شعر الصيد .

ونبدأ بالقصائد الثلاث المطولة وهي لشاعرين ، اثنتان منهما لأوس بن حجر الشاعر الجاهلي ، وواحدة للشماخ بن ضرار الشاعر المخضرم وطبيعي أن تكون وقفتنا الأولى مع أوس ، وقصيدتاه كلتاهما لاميتان إحداهما مفتوحة الروي والأخرى مضمومته.

وفي القصيدة المفتوحة الروي صورة واسعة للقوس وهي أحرى أن تكون نقطة البداية ويستهلها أوس بمقدمة غزلية يقول فيها[٥] :

صَحَا قلبُهُ عن سُكره فتأمَّلا وكان بذكرى أم عمرٍو مُوكلا

يخلص بعدها إلى الفخر ، فلا يجد إلا قوسه يتتبع رحلتها منذ أن كانت عودا في شجرة نبع نمت في جبل عالٍ جلله السحاب[٦] :

ومبضوعةٌ من رأسِ فَرْعٍ شَظِيَّةٌ بطودٍ تَراهُ بالسّحابِ مُجَلَلا
على ظهرِ صَفوانٍ كأنّ مُتُونَهُ عُلِلنَ بدُهنٍ يُزلق المتنزلا

فالنبعة كما ترسمها صورة الشاعر في جبل عال ، صعب المرتقى كأن صخوره علت بدهن فلا تثبت عليها قدم ، وعلى ذلك يصبح الوصول إلى هذه الشجرة ضربا من المحال .

وإظهار صعوبة الوصول إلى الأشياء النادرة سنن سلكه الشعراء في موضوعات عدة ، نراه في وصف عملية الغوص على اللؤلؤ ، ونراه في اشتيار العسل وما يتفنن فيه الشعراء من تصوير مخاطره ، وعلى ذلك مضى أوس - كما رأينا - في تصوير نبعته فراح يكثف قيمة النبعة في صورة ذلك الراعي الذي وقعت عليها عينه ، فظل يطيف بها ، يملأ منها عينه ، ويتأملها وقد غلبه اليأس أن يصل إليها حتى يلقى هذا « الميدعاني » فيخبره بأمرها لقاء أن يذكره ببعض الغنم :

يُطيفُ بها راعٍ يجشّمُ نَفْسَهُ ليكلئ فيها طرْقَهُ مُتَأمّلا
فلاقى امرأً من مَيْدَعان وأسمحتْ قرُونَته باليَأسِ فيها فَعَجّلا[٧]
فقالَ لهُ : هَلْ تَذكُرَنّ مُخَبّراً يَدُلّ على غُنْمٍ ويُقصِرُ مُعجلا
على خيْرِ ما أبصرْتَها من بضَاعةٍ لملتمس بَيْعاً بها أو تَبكلا[٨]
فويقَ جُبَيْلٍ شامخِ الرأس لم تكن لتبلغَهُ حتى تكل وتعْمَلا

ولقاء الراعي بهذا الميدعاني لم يكن إلا لقاء بمن يملك الخبرة ، فميدعان كما تحدثنا المصادر[٩] حي من أزد السراة وهم أهل جبال شجيرة ، ومنهم بنو ماسخة الذين تنسب إليهم القسي العربية ، إذن فهذا الميدعاني قواس خبير ، وكان دأب القواسين إذ ذاك أن يطلبوا العيدان العتق من مظانها ، ويستدلوا عليها الرعاء وقناصي الوعول ، ويجعلوا فيها الجعائل .

وربما يلفتنا في الأبيات السابقة غياب ما كنا نتوقعه من مساومة بين الراعي والميدعاني فلا نرى ثم إلا عرضا من الراعي ، وأملا منه في المكافأة :

فقال له : هل تذكرنّ مُخبراً يَدُلّ على غنمٍ ويُقَصِرُ معْمِلا

وغياب هذه المساومة يشي بتلهف الميدعاني لمعرفة النبعة ، وباستعداده أن يدفع في سبيل الظفر بها ما شاء الراعي ، وينقلنا أوس فجأة فنرى الميدعاني وقد وقعت عينه على النبعة ، ورأى ما دونها من مخاطر[١٠] :

فأبصَرَ إلهاباً من الطوْدِ دُونَها تَرى بينَ رَأسَيْ كل نيقَيْن مَهبِلا
فأشْرَطَ فيها نفْسَهُ وهوَ مُعصمٌ وألقَى بأسبابٍ له وتوكـــلا
وقد أكلت أظفارُهُ الصَخرُ كلما تَعَايا عليه طُولُ مَرْقى تَوَصلا
فما زَالَ حَتى نالها وهو مُعصمٌ على مَوطنٍ لوْزَلّ عنهُ تفصلا
فأقبل لا يرْجو التي صَعَد ت به ولا نفسهُ إلا رَجَاءً مُؤمـلا

لقد أبصر هذا الميدعاني ما يحول بينه وبين النبعة من مهالك تتجسد في هذا الجبل الشاهق غير أنه لا يأبه ويشرط نفسه للموت ويلقى بحباله على الجبل في رحلة لا يعرف نهايتها ، لقد غاب في الصورة صوت النفس المخدرة الذي نسمعه في مواقف مماثلة في صور الغوص والاشتيار ، وغياب هذا الصوت في صورة أوس دليل على القيمة المتناهية لعود النبع ، حيث نسي الميدعاني نفسه ، ولم يقم وزنا لوساوسها .

ويعرض أوس مشهد التسلق في لقطات سريعة موحية من مثل ما نرى في قوله : « وقد أكلت أظفاره الصخر » وفي قوله : « وهو معتصم على موطن لو زل عنه تفصلا » وربما استوقفنا في هذه الصورة أن « أوساً » لم يصف لنا فرحة القواس بغنمه، وربما بدا البيت الأخير من الأبيات السابقة لأول وهلة عجيبا في موضعه إذ نحس فيه بتهالك هذا الميدعاني ولكن قراءة متأنية للأبيات تبرز هذا البيت متمما للصورة فقد بذل الميدعاني كل طاقته في رحلة الصعود ، ولم يبق منه حين أقبل إلا ذماء بحيث أصبح لا يرجو نفسه إلا رجاء مؤملا ، ولعل أوسا قد أراد بذلك أن يعلي قيمة النبعة على الحياة ، فلتذهب حياة هذا الميدعاني إذا قدر لها أن تذهب فليس هذا

بشيء ذي بال إذا تم الظفر بهذا العود النفيس .

ويتابع أوس هذا الميدعاني بعد أن ظفر بغنمه ونجا من كربه ليعرض علينا صورة لإعداد هذه النبعة ، وتهيئتها لتكون قوسا ، فقد تركها الميدعاني مدة لتذبل وتشرب ماء لحائها ، ثم شرع في تثقيفها فاستعان في ذلك بخبير صيقل ، وذلك قوله :

فلما نجا من ذلك الكَرْبِ لم يَزَل ... يمظعُها ماءَ اللحاءِ لتَذْبُلا
فأنحى عَلَيْها ذاتَ حَدٍّ دَعَا لـه ... رَفيقاً بأخذٍ بالمَداوِسِ صَيْقلا
على فَخذَيْهِ من بُرَاية عُودِها ... شَبيهُ سَفى البُهمَى إذا ما تفتلا

ولعلنا لحظنا أن أوسا في هذه الأبيات يعتمد على الصورة الموحية والتعبير الدال دون أن يهبط إلى المباشرة ، فقد أشعرنا بطول المدة التي استغرقتها النبعة لتذبل دون أن يحدد هذه المدة ، وإنما اكتفى بالقول ولم يزل يمظعها ، وهو قول يشي بالبعد الزمني وكأن هذا الميدعاني يسقي عوده ماء اللحاء جرعة جرعة ، كذلك وشت لفظتا « رفيق» و « صيقل » في البيت الثاني بالحذر ، والدربة ، وصعوبة المعالجة ، وتأتي الصورة في البيت الثالث لتبرز جهد الصيقل وحذرته وأناته في شكل البراية الدقيقة التي تجمعت على فخذيه والتي هي أشبه بسفا البهمي .

وتستوي العود قوسا ، فإذا هي قوس اكتملت لها كل صفات الجودة :

فجرّدَها صَفْراءَ لا الطولُ عابهَا ... ولا قِصَرٌ أزْرَى بهـا فَتَعَطـــلا
كَتومٌ طِلاعُ الكف لا دون مَلئها ... ولا عَجْسُها عن موضع الكفّ أفضَلا[١١١]
إذا مَا تعاطوْهَا سمعْتَ لصَوْتها ... إذا انبضُوا عنها نَئيماً وأزْمَـــلا
وإن شدّ فيها النزْعُ أدبَرَ سهمـا ... إلى مُنتهىً من عَجْسها ثـم أقبَـلا

إنها صفراء وذاك آية صلابتها ، ثم هي لا يعيبها طول ولا يزري بها قصر ، كتوم لاشق فيها ، ملء كف راميها لا يقلق القابض عليها غلظ أو ضمور ، إذا جذب وترها سمعت له أنينا يدبر ويقبل مع حركة الوتر .

ويدلف أوس من القوس إلى سهامها فيشير إلى اختيار أعوادها من نوع معروف

من الشجر هو « الغرب » ويلمح إلى تأنق صانعها في صناعتها ، وكيف يركب لها نصالاً يتوهج بريقها كجمر الغضا حين يتطاير شرره مع الريح ، ثم كيف يكسوها الريش اللؤام أي الذي لازم بعضه بعضا ، ولا يفوت أوس أن يحدد لون الريش فهو أطحل تمتزج فيه الغبرة والبياض والسواد ، وقد بلغ من دقة نصول هذه السهام وشدة صقلها وشحذها أنها تصدر صوتا كالخوار إذا مررت على الأصابع في الندى فكيف بها إذا مررت على الأصابع في يوم مطير ، إن خوارها سيكون كخوار النوق المطافيل وأطلائها ، وقد وقعن على مرعى خصيب :

فلما قَضَى مِمَّا يُريدُ قضاءَهُ ... وصَلَبَها حِرْصاً عَليها فأطولا
وَحَشْوَ جَفيرٍ من فُرُوعِ غَرائبٍ ... تنطعَ فيها صَانعٌ وَتَنبلا
تُخيَّرْنَ أنضَاءً وركِّبْنَ أنصُلاً ... كجَمْرِ الغَضا في يوم ريحٍ تزيَّلا
فلما قضى في الصنع منهن فهمه ... فلم يبق إلا أن تسنّ وتصقلا
كَساهُنَّ من ريشٍ يمانٍ ظواهِراً ... سُخَاما لؤاما لينَ المس أطحلا
يخُرْن إذا أنقرنَ في ساقط الندى ... وإن كان يوماً ذا أهاضيبَ مُخضلا
خُوارَ المطافيلِ الملمعةِ الشُّوَى ... وأطلائِها صادَفْنَ عِرنانَ مُبقلا

وبذلك يصل أوس إلى تمام القول في القوس ليدخل في الفخر معلنا أن هذه القوس هي عتاده في الحرب .

فذاك عتادي في الحروبِ إذا التظتْ ... وأرْدَفَ بأسٌ من حروبٍ وأعجلا

وطبيعي أن هذه الصورة الواسعة التي رسمها أوس لقوسه ليست هي - أيضا - إلا جزء من الفخر ، فاستطراده إلى تتبع رحلة القوس منذ أن كانت عودا إلى أن استوت عدة في يده ليس إلا لونا من التهديد ، وخيراً صنع أوس بتهديده هذا فقد سجل لنا فيه صورة مفصلة حية لصناعة القوس لا نجدها في المصادر إلا نتفا ممزقة ، وأخباراً مبعثرة ، ومصنفات ميتة تخلو من الحياة .

* * *

أما لامية أوس الثانية[١٣] :

لليْلى بأعْلى ذي مَعَارِكَ مَنْزِلُ خَلاءً تَنَادى أهْلُهُ فتحملوا

فللقوس فيها تسعة أبيات ، فنرى أوساً في معرض فخره بسلاحه يفخر بقوسه الصفراء التي تأخذ الوحش من صوتها رعدة :

وصَفْراءَ من نَبْعٍ كأنّ نذيرَها إذا لم تُخفضْهُ عن الوَحشِ أفكَلُ

ثم يستطرد إلى قصة هذه القوس حيث وقعت عليها عين راعٍ وهي لم تزل بعد «حظوة » أي عوداً صغيراً فأخذ يتعهدها بين أشجار النبع والبان والظيان والرنف والشوحط :

تَعلمَها في غِيلها وهي حَظْوةٌ بوادٍ به نَبْعٌ طوال وحِثْيَلُ
وبَانٌ وظيّانٌ ورَنْفٌ وشوْحَط ألفُّ أثيثٌ ناعِمٌ متغيّلُ

فإذا استوت العود في شجرتها قطعها الراعي ثم بدأ رحلة التجفيف التي استغرقت عامين ، يرفعها بالليل على ظهر العريش وينزلها بالنهار ، حتى لا تتعرض لأشعة الشمس فتتشقق وهو في كل ذلك حريص على أن يبقى لها من لحائها قشرة رقيقة كقشرة البيض التي تلي قشرته الخارجية الغليظة :

فَمظعَها حولين ماءَ لحائِهَا تُعَالى على ظَهْرِ العريشِ وَتُنزَلُ
فَمَلكَ بالليطِ الذي تحت قشرها كغرقئ بيضٍ كنّه القيضُ من علُ

فإذا ظن الراعي أنه أحكم أمر العود ذهب به إلى السوق وهو يمني نفسه الأماني فيعرض له الشاعر مساوما عارضا له في مقابل عوده ثلاثة أبراد وخريطة من الأدم وزقا من العسل ، وحينما ينزعج الراعي لهذا الثمن البخس يقول له الشاعر شتان ما ترى وعودك هذا المعطل ، ويصر على ألا يزيد ، ويظفر في النهاية بالبيع .

وأزْعَجَهُ أنْ قيل شَتّانَ ما تَرى إليكَ ، وعُودٌ من سَرَاءٍ معَطلُ
ثلاثةُ أبرادٍ جيادٍ وجُرْجَةٌ وأدكنَ من أرْيِ الدَّبور مُعسلُ

فجئت ببيعي مُولياً لا أزيدهُ عليه بها حتى يؤوبَ المنخلُ

ولعل من الملحوظ في الأبيات أن أوساً أغفل شخص الراعي فعبر عنه بضمير الغائب ، فلم يدر القارئ أي إنسان هو ، وهذا إغفال متعمد لأن المهم هنا ليس شخص الراعي أو غيره ، وإنما المهم قصة تلك القوس منذ أن كانت حظوة في غيل ملتف وهو ما ركز عليه أوس في صورته ، وفي هذا السياق تأتي صورة تجفيف العود وهي صورة واسعة نوعا ما فتبين لنا المشقة التي تكبدها الراعي في عملية التجفيف والمدى الزمني الذي استغرقته هذه العملية حيث حدده أوس بعامين . ولا ندري ما إذا كان ذلك من قبيل المبالغة أوانه يعبر فعلا عن المدى الزمني الذي تستغرقه عملية التجفيف . وعلى أي فالصورة تسجل جانبا مهما من عملية إعداد أعواد القسي ..

أما صورة المساومة فهي صورة حية ، نرى فيها ذلك الشاري المتمرس الذي يستطيع أن يشتري ما يريد بأقل الأثمان ، وانظر إلى كلمة « أزعجه » في هذا المشهد وما تمثله من إحساس البائع بنفاسة ما معه وخيبة أمله فيما يقدم إليه من ثمن ، ثم انظر إلى وصف الشاري للعود بأنه عود من سراء معطل وما فيه من إشعار للبائع بضآلة ما معه ، فهذا العود مازال محتاجا لعمليات أخرى من التثقيف والتقويم حتى يستوي قوسا ، وانظر إلى قول الشاعر « لا أزيده عليه بها حتى يؤوب المنخل » وما يوحي به من محاولات ذلك الراعي أن يحصل على ثمن أعلى ثم يأسه من ذلك ..

إن هذه الأبيات التسعة - على قصرها - عرضت لرحلة القوس في لقطات سريعة، وصحيح أنه قد غابت منها خطوط عرض لها الشاعر في قصيدته السابقة ، مثل صعود الجبل ومثل تثقيف العود وتقويمها غير أنها أضافت خطوطا جديدة مثل عملية التجفيف ، ومثل بيع أعواد السراء .. وبهذا تتكامل قصيدتا أوس في إعطاء صورة موسعة للقوس .

* * *

- ٣ -

ونترك « أوساً » إلى الشماخ بن ضرار الذبياني وطرديته المشهورة[١٤] :

عفا بطنُ قو من سُليمي فعالزُ فذات الغضا فالمشرفات النواشز

حيث نراه في معرض وصفه لحمر الوحش يستطرد إلى القوس في لوحة نابضة تستغرق أربعة وعشرين بيتا . والشماخ بهذه القصيدة عد أشهر الشعراء في وصف القوس إذ قدمه ابن قتيبة على أوس فقال : « هو أوصف الشعراء للقوس ، وكذلك أوس »[١٥] .

وأثارت قصيدة الشماخ إعجاب الشيخ محمود شاكر - رحمه الله - فاستلهمها قصيدة شعرية فريدة في بابها وسماها بالقوس العذراء قال في مقدمتها : « إني لمحدثك الآن عن رجل من عرض البشر يتعيش بكد يديه ، صابر الفاقة عامين يعمل عملا يفلت نفساً من الغنى إليه ، أغواه ثراء يبهره فما كاد يسلمه للبيع حتى بكى عليه ، لم أعرفه لكن حدثني عنه رجل مثله عمله البيان ، ذاك فطرته في يديه ، وهذا فطرته في لسانه[١٦] :

وإنما نقلنا ما نقلنا من حديث الشيخ شاكر لنلفت إلى أن قصيدة الشماخ استطاعت أن تنقل صورة نابضة حية لبعض القواسين جعلت قارئا مثل الشيخ شاكر - وهو من هو - يؤثرها على ما سواها من شعر هذا الباب ، ويرى فيها عالما رحيبا من مشاعر الإنسان .

وينطلق الشماخ إلى تصوير القوس من مشهد ذلك الصائد الذي يذود مجموعة من الحمر الوحشية عن الماء ، إنه عامر أخو الخضر الذي لا يملك من الدنيا غير قوسه وأسهمه ، ولكن الوحوش تبدو أمام هذه القوس لسرعة سهامها وكأنها ثابتة ، فإذا رمت لا يداوى رميها :

وحلأها عن ذي الأراكة عامرٌ أخو الخُضْر يَرْمي حيثُ تكوى النَّواحزُ[١٧]
قليل التلاد غيرَ قوسٍ وأسهُمٍ كأن الذي يَرْمي من الوحش تــارزُ
مُطِلاً بزُرْقٍ ما يُداوى رميّهـا وصفــراءَ من نبعٍ عليــه الجلاتـزُ[١٨]

ثم يستطرد الشاعر إلى قصة القوس ، فقد تخيرها القواس من بين غابة كثيفة فمازال يشق طريقه إليها بين الأغصان المتشابكة ، ومازال يقطع كل ما يعوقه إليها من الرطب واليابس حتى بلغها بعد لأي فأنحى عليها فأسه الحادة :

ثَمَتْ في مكان كنَّها واستوتْ به فما دُونها من غيلها مُتَلاحزُ[١٩]
فما زال ينجو كلَّ رطبٍ ويابس وينغلُ حتى نالها وهو بارزُ
فأنحىَ إليها ذات حَدَّ غُرابُها عدو لأوسَاطِ العِضَاهِ مُشارزُ

ولعلنا لحظنا كيف جسدت اللغة التي اختارها الشماخ صعوبة بلوغ عود السراء فالفعل « كنّ » يوحي بخفاء العود وتتضافر معه كلمة « متلاحز » بإيقاعها الصوتي فنشعر بمدى كثافة هذا الغيل والتفاف أغصانه ، ثم يأتي الفعل ينغل بلامه المشددة ليجسد المعاناة التي عاناها هذا القواس في اختراق هذه الأشجار المتشابكة ، فإذا وصل القواس إلى ضالته لم نر إلا صورة لهذه الفأس الشرسة التي تهوي على العود في حدة وشدة كأن بين حدها وبين أوساط العضاه عداء . .

وما إن يظفر القواس بضالته حتى نراها تنتفض نابضة بالحياة ، ويستحيل العود من نبات إلى كائن حي ، فهو حينا يبدو في صورة معشوقة تطمئن في يدي عاشقها ، وهو حينا آخر يبدو فرسا شموسا تقوم ضغنها المهامز ، ومن ناحية مقابلة نرى القواس يرى في عوده هذا ما يراه العاشق في معشوقته فإذا به يفارق خلطاءه خالبا إليه ، واجدا فيه كل غنى الدنيا ، وإذا به يراقبه بعين المحب في رحلة تجفيفه على مدى عامين ، ويمد كفه الرفيقة إليه يتحسسه ليعرف أي أجزائه يحتاج التقويم . . وهكذا تنبض الصورة بدفء حميم :

فلما اطمأنتْ في يديه رأى غنىً أحاط بــه وازورَّ عمنْ يُحَاوزُ
فمظعهـا عامين مـاءَ لحائِهـا وينظرُ منها أيهــا هُـوَ غَامزُ

أقامَ الثقافَ والطريدةُ دَرْأها كما قوَّمت ضِغْنَ الشمُوسِ المهامزُ

وتأتي ساعة الاختبار يعرضها الشاعر في تشكيل لغوي رائع ينم عن عمق إحساس بالموجودات ، فنرى القوس تعطي صاحبها جانبا من اللين ، وكأنها فتاة تلين بعد تمنع ولكنها لا تلين كل اللين ، ونرى الشاعر يعبر عن عملية الاختبار بالفعل « ذاق » وكأن لين القوس يذاق كما تذاق الأطعمة ، بل كما تذاق العواطف ، ونرى العاشق يرضى بما قوم من شموس معشوقته وبما أعطته أخيرا من بعض اللين :

وذاقَ فأعطته من اللينِ جانباً كَفَى ولها أنْ يغرقَ السهم حاجزُ[٢٠]

ويعرض الشاعر لجودة القوس ، ومدى إصابتها الهدف فيركز على جانب الصوت ، فإذا أنبض الرامون عن وترها سمع لها صوت أشبه بصوت الثكلى وقد أثارتها رؤية الجنائز ، ويتحول هذا الصوت النائح إلى صوت هتوف فرح حين يخالط السهم فريسته ، إن هذا الصوت العالي نواحا كان أو هتافا يشل الفريسة فحتى إذا نجت من السهم خذلتها قوائمها من الرعب :

إذا أنبضَ الرامون عنها ترنمتْ ترنمَ ثكلى أوْجَعَتْها الجنائزُ
قذوفٌ إذا ما خالط الظبي سَهْمها وإن ريغَ منها أسلمتهُ النواقزُ

وقد وردت في رواية الديوان (قذوف) بدلا من هتوف وقيل في تعليل ذلك : إن ترنمت تغني عن (هتوف) وفي (قذوف) إضافة جديدة إلى المعنى وهذا تعليل لا يكاد يتعدى ظاهر اللفظ ، ويغفل عن تلك العلاقة الحميمة التي أراد الشاعر أن يقيمها بين صاحب القوس وقوسه وأسهمه ، فالترنم ساعة انطلاق السهم يشي بحزن السهم وكأنه لا يريد أن يفارق صاحبه ، والهتاف يقترن بالظفر بالصيد ، وكأن السهم فرح بما أنجزه من رغبة صاحبه ، أما شدة القذف التي رأى بعض الرواة أنها مستفادة من قذوف فمن الممكن أن تستنبط من سائر الصورة التي رسمها الشاعر لمخالطة السهم صيده ، ومهما كان من أمر ، وعلى أي الروايات قرأنا الأبيات ، فلن تغيب عنا الحياة التي بثها الشاعر في صورته .

ويمضي بنا الشاعر فيوقفنا على القواس وقد رضي عن قوسه فأخذ ينظر إليها

بإعجاب متأملا محاسنها فإذا بها أجمل من كل شيء ، وإذا بها تبدو في لونها الأصفر وكأنها طليت بزعفران يمان من خير ما تخزن النساء وتكنز . وهكذا نرانا مرة أخرى أمام العاشق ومعشوقته :

كأن عليها زعفراناً تُميرُه خوازنُ عَطارٍ يمانٍ كوانزُ

ويأتي البيت التالي فيتم صورة العشق ، ويبرز لنا خوف العاشق ، وصيانته لمعشوقته ، وبذله لها كل من يحفظها كريمة مصونة ، فهو يحميها من الأنداء بثوب ناعم حبير مترفعا بها عن خلق الثياب :

إذا سقط الأنداءُ صِينَتْ وأكرمَت حبيراً ولم تدرَج عليها المعَاوِزُ

وفي رواية أخرى[٢١] :

إذا سَقطَ الأنداءُ صينَت وأشعرت حَبيراً ولم تُدرَجْ عليها المعاوِزُ

وهي رواية جيدة إذ تجعل الثوب الحبير شعارا أي ثوبا يلي الجسد وفي ذلك ما فيه من إضفاء النبض والحياة على القوس .

* * *

ثم نصل إلى مشهد بيع القوس ، وهو مشهد من أغنى المشاهد بالمشاعر الإنسانية، نرى فيه تمزق الإنسان بين مطالب القلب ومطالب الجسد ، ونرى فيه الحياة تقهر الإنسان أحيانا فتدفعه إلى التضحية بأعز ما يمتلك ويقتني في سبيل ما يدفع الفاقة ، هذا عامر أخو الخضر يضطر إلى بيع قوسه ، وينحني أمام عواصف الفقر ، لقاء بضع أوان من الذهب ، وبعض من الثياب والأدم ، يبيع قوسه ، مودعا بدمعه تنحدر من عينه معشوقته إلى الأبد .. إن أبيات هذا المشهد أبيات فذة ، تشهد للشماخ بالحس المرهف ، والنفاذ إلى عمق الأشياء ، والقدرة على صوغ ذلك في لغة شفافة موحية .. يقول الشماخ :

فَوافىَ بها أهَلِ المواسم فانبرى لها بَيْعٌ يُغْلي بها السَّومَ رَائزُ
فقال له : هل تشتريها فإنها تُباعُ بما بيعَ التلادُ الخَرَائـــزُ

فقال : إزار شرعبي وأربَعٌ من السّيراءِ أو أواقٍ نواجـزُ
ثمانٍ من الكيري حُمرٌ كأنّها من الجمر ما ذكى على النارِ خابزُ
وبُردانِ من خالٍ وتسعون درهماً ومع ذاكَ مقروظ من الجلد مَاعِزُ
فظل يناجي نفسه وأميرها أياتي الذي يُعطى بها أم يجاوِز؟
فقالوا له : بايع أخاك ولا يكن لك اليومَ عن ربح من البيع لاهِزُ
فلما شراهَا فاضت العينُ عبرةً وفي الصدر حزازٌ من الوجدِ حَامِزُ

ونقف عند البيت الأول لنرى كيف تآزر الصوت مع الكلمة في الإيحاء بالصورة ، ويلفتنا قول الشاعر : « فوافى بها أهل المواسم » حيث تتابعت في هذا التعبير أربعة أحرف للمد ، اثنان في « وافى » ومد « ها » الضمير ، والمد في كلمة المواسم ، وهذا المد المتتابع يشي - في حسنا - بتثاقل صاحب القوس وتباطئه وكأنه يريد أن يترك لنفسه فسحة من الوقت ، أو كأنه يريد ، وقد عرف ما هو مقدم عليه - أن يصاحب القوس أطول مدة ممكنة ، ولقائل أن يقول : ألا يتناقض ذلك مع استخدام الفاء العاطفة في أول الجملة وهي الفاء التي تدل على التعقيب ؟! وهذا قول دقيق من الوجهة النحوية ، غير أننا نرى أن هذا التناقض الذي أحدثته الفاء قد أعطى الصورة ثراء نفسيا عجيبا فهذا القادم رغم تثاقله ، ورغم تباطؤ خطوه يحس بالوقت يمضي سريعا كما يحس العشاق في صحبة معشوقاتهم ، ومن هنا كانت الدقة الشعرية في استخدام هذه الفاء[٢٢] .

ونمضي مع البيت فنقف وقفة أخرى عند كلمة « بيّع » إذ نحس في نطقها وكأن الباء تتشبث تشبثا بالياء المشددة ، ونشعر أن ذلك يعكس - على نحو من الأنحاء - تشبث هذا البائع المتمرس بالقوس ، ثم نأتي إلى آخر البيت فيستوقفنا المد في كلمة (رائز) فنشعر أن الراء فيه حائمة حول ما يلي المد من أحرف وهو حوم يعكس - في حسنا - حوم هذا البائع المتمرس حول القوس ..

ويستوقفنا في البيت الثاني الاستفهام : « هل تشتريها .. فإنها تباع بما بيع التلاد الحرائز » هذا قول صاحب القوس للبيّع .. وربما بدا الاستفهام عرضا ببيع يحس

صاحبه نفاسته ، لكننا - وقد تمثلت لنا حال صاحب القوس - نحس أنه عرض تعجيزي، فالرجل يريد أن يبيع ويريد ألا يبيع في الوقت نفسه ، يريد أن يبيع ربما لضغط من زوجه وأولاده ويريد ألا يبيع لأن القوس تمثل له حياة ، لذلك فهو يعرض هذا العرض الموئس .. إنها قوس لا تباع بأي ثمن ، لكنها تباع بما بيع التلاد الحرائز ..

ونأتي لثالث الأبيات فنرى تلقف (البيع) لهذا العرض وأول ما يشعرنا بهذا التلقف حذف ما تعلق بـ (قال) من الجار والمجرور فلم يقل (قال له) كما جاء في البيت السابق وإنما اكتفى بـ (قال) وحدها ، ثم تتوالى عروض هذا البيع أخباراً محذوفاً مبتدآتها .. ولا نريد أن نترك هذا البيت الثالث دون أن نقف عند (أو) .

فقال : إزار شرعبي وأربع من السّيراءِ أو أواقٍ نَواجزُ

فالنحاة يرون أن (أو) للتخيير ، والتخيير معناه تساوي الأشياء المخير بينها ، فهل هذا ما نحسه في البيت ، وهل الإزار الشرعي وأربع من السيراء تتساوى مع أواقي الذهب النواجز التي حددها البيت التالي (بثمان) وفي ظننا أن التخيير هنا لا يعني التساوي إنما هو تصاعد بالثمن فالأواقي النواجز أعلى قيمة من الإزار الشرعي وثياب السيراء .. وهذا التصاعد بالثمن نحسه مع كل حرف من حروف العطف فأواق نواجز ثمان .. وبردان من خال .. وتسعون درهما .. ومع ذاك مقروظ .

هكذا يتصاعد « البيع » بالثمن في سرعة متلاحقة لا تتوقف إلا لمزيد من الإغراء كما نرى التوقف في البيت الرابع للإغراء ببريق الذهب الكيري الذي يشبه الجمر:

ثمانٍ من الكيريّ حُمرٌ كأنها من الجمرِ ما ذكى على النارِ خابزُ

إن هذا البيع المتمرس لا يريد أن يترك لصاحبه فرصة ، وحينما يصل العرض إلى أقصاه ، ويحاول صاحب القوس أن يراجع نفسه تأتي قوة ضاغطة أخرى هي أصوات المتحلقين (بايع أخاك) (لا يكن لك اليوم عن ربح من البيع لا هز) . حينئذ يدفع الرجل بقوسه وقد تحدرت دمعة على عينه ، وفي صدره ما فيه من الوجد والغم ،

ولننظر مرة أخرى إلى اختيار الشاعر لكلمتي (حزاز) و (حامز) في قوله « وفي الصدر حزاز من الوجد حامز » وما فيهما من الإيحاء بالصوت .

لوحة غنية شديدة الغنى تجلت فيها عبقرية الشاعر ، ورأينا مقدرته الفذة على التشكيل باللفظ ، وعلى بعث الحركة والحياة فيما يصور وعلى الوقوف على أدق خلجات النفس .

وبعد فالشماخ جدير بهذه القصيدة الفريدة أن يكون شاعر القوس في الشعر العربي ، ففرق بعيد بين قصيدته هذه وما قرأنا من شعر أوس بين التصوير الحي وبين التسجيلية التي ربما لا تعيننا سوى على التوثيق .

- ٤ -

وبعد أوس بن حجر والشماخ بن ضرار لا نكاد نقع على صورة واسعة للقوس إنما هي لقطات سريعة ، وصور مقتضبة تتخلل مقاصد أخرى للشاعر ، غير أن تتبع هذه اللقطات والصور السريعة قد يكون مفيدا في استجلاء جوانب أخرى من صورة القوس وصناعتها ربما أغفلتها القصائد الطوال .

ولعمرو بن قميئة - وهو من أقدم الشعراء - بيتان في وصف القوس وسهامها وردا في إطار مشهد لحمر الوحش يقول فيها [٢٣] .

له شريانة شغلت يديه ... وكان على تقلدها قويا
وزرق قد تنخلها لقضبٍ ... يشدُّ على مَنَاصبها النضيا

وما يلفت في البيتين أنه وصف القوس بأنها شريانه وفيه إشارة إلى أن القوس كانت تصنع من شجر الشريان ، ويقال عنه إنه شجر جبلي ، والقوس المتخذة منه جيدة .

أما امرؤ القيس فيضيف (النشم) إلى الأشجار التي تصنع منها القسي ، كما

يطلعنا على صفة من الصفات المستحبة في القوس فيقول : « إنها غير باناة » على لغة طيء أي غير بائنة أي أن وترها ملتصق بها وذلك ربما كان أشد على الرامي ، ولكنه أبعد لذهاب السهم ، وذلك قوله في وصف رامي بني ثعيل الذي يقال إنه عمرو ابن المسيح أحد المعمرين في الجاهلية[٢٤] :

رب رامٍ من بني ثُعَلٍ ... متلجٍ كفيهِ في قتره
عارضٍ زوْراءَ من نشمٍ ... غير باناةٍ على وَتره

ومرة أخرى يرد ذكر القوس وسهامها في معرض وصفه لبعض الصيادين في إشارة سريعة إلى لونها الأصفر الصافي وإلى حدة نصال سهامها[٢٥] .

وأدعَجُ العينِ فيها لاطئٌ طمرٌ ... ما إن له غيرُ ما يصطادُ مكتسب
في كفهِ نبعة صفراءُ صافيةٌ ... ومرهفاتٌ على أسناخها العَقَبُ

ونعود مرة أخرى فنذكر أوس بن حجر في أبيات ثلاثة تصور جانبا من صناعة السهام حيث تصور صائدا يغرو السهم ليلصق عليه الريش الذي أخذه من مناكب الطير، وكيف يضعه معكوساً فظهر ريشه إلى بطن أخرى ، وكيف يحاول الصائد كتمه حتى لا تسمع الوحش[٢٦] :

قصيٌّ مبيت الليل للصَّيد مُطعمٌ ... لأسهمه غَارٍ وبارٍ وراصفُ
فيسَّر سهماً راشهُ بمناكبٍ ... ظُهارٍ لؤام فهو أعجف شارفُ
على ضالةٍ فرعٍ كأن نذيرها ... إذا لم تخفضه عن الوحش عَازِفُ

وفي شعر زهير بن أبي سلمى - وهو تلميذ أوس - نقع على صورة دقيقة لصناعة القوس تجلو بعض خفايا القوس ، فقد وصفها بأنها « متابعة » أي يتبع وترها السهم عند انطلاقه ، ويتأنى في صفة القوس فهي ملساء لا خشونة فيها ، قوست بوضعها كما توضع السبيكة وروعي أن يكون أعلاها أوسع من أسفلها ، كما يشير إلى عودها المأخوذ من شجر النبع ، ويتوقف زهير عند الوتر ليصف هيئته المشدودة بميل واحديداب وذلك أجود للرمي ، ولا يفوت زهيرا أن يصور لنا صوت السهم في انطلاقه فيشبهه بنائحة تبكي على كرام فارقوا الحياة[٢٧] . .

معه متابعةٌ إذا هو شدّها بالشرع يستشزي له وتحدَّبُ
ملساءُ مُحْدَلَةٌ كأن عتادَها نواحة نَعَت الكرامَ مُشبّبُ
كاقواء خلقاء المقوس نبعةٌ مثل السُّبيكة إذ تمل وتشسبُ
عرش كحاشية الإزار شريجة صفراءُ لاسِدرٌ ولا هي تألبُ

ومن زهير إلى الشنفرى حيث نراه يركز على جانب الحركة والصوت كيف تأبى بعجسها ، وترمي بذرويها ، وكيف يكون لسهامها إرنان كإرنان الشجي ، وكيف يكون لسهمها حين يحتك بمقبضها حفيف كحفيف النحل تخطئ طريقها إلى غارها في الجبل :

وحمراءُ من نبع أبيّ ظهيره ترن كإرنان الشجي وتهتفُ[٢٨]
إذا آل فيها النزعُ تأبى بعجسها وترمي بذرويها بهن فتقذفُ
كأن حفيف النبلِ من فوق عَجسها عوازِبُ نحل أخطأ الغار مطنفُ

وفي أبيات أخرى بعد أن يستعرض شكل السهم ودقة صنعه يصف عملية النزع فيقدمها في صورة طريفة ، صورة ذلك الذي يحلج القطن ويخلصه من بذوره ثم يشبه الصوت الصادر من القوس بأنين مريض مشجع[٢٩] :

ومستبسلُ ضافي القميص ضممتُهُ بأزرق لا نكس ولا متعوّجِ
عليه نُساريّ على خوط نبعةٍ وفوق كعرقوب القطاةِ مدحرجِ
وقاربتُ من كفيّ ثم نزعتها بنزع إذا ما استكره النزع محلج
فصاحت بكفي صيحةً ثم راجعت أنين المريض ذي الجراح المشجح

تبقى - بعد ذلك أبيات لبعض الشعراء ربما كانت ذات فائدة في التعريف ببعض أماكن صناعة القسي ، وبعض صناعها ، فيصف عنترة قوسه في بعض وشعره بأنها رضوية[٣٠] :

أبَينا فلا نُعطى السواء عدُونا قياماً بأعضاد السَّراء المعَطفِ
بكل هتوفٍ عَجسها رضويةٍ وسهم كسير الحميري المؤنفِ

ومعروف أن « رضوى » التي نسب إليها عنترة قسي قومه مكان قريب من المدينة، وربما كان القائمون على مثل هذه الصناعة هم اليهود الذين عرفوا بصناعة السلاح .

أما أبو ذؤيب الهذلي فيصف قسي قومه بأنها من الجعثميات[٣١] :

كأنَّ ارتجاز الجعثميّاتِ وسطهُمْ نوائحُ يَشْفعنَ البُكى بالأزاملِ

والمنسوب إليهم في البيت بنو جعثمه وهم قبيلة يمنية تنسب إلى نصر ابن الأزد وعرفت بصناعة القسي .

ومرة أخرى نعود إلى الشماخ حيث نقع له في هذا السياق على بيت فرد يصف فيه القسي بأنها من الماسخيات[٣٢] :

فقربتُ مُبراةً تخَالُ ضلوعَها من الماسخيَّاتِ القسيُّ الموتَّرا

وذلك نسبة إلى ماسخة ويقال : إنه رجل من الأزد هو أول من برى القسي

* * *

ولاشك أن هذه المتفرقات - على قلتها - تكمل لنا صورة القوس ، وتعطينا بعض المعلومات الموثقة عن صناعتها وأماكن هذه الصناعة وبعض من عرف بها . وربما كان في اقتطاع هذه المتفرقات على الهيئة التي عرضناها بها إضعاف لقيمتها الفنية لأن قيمتها الفنية لا تبرز إلا إذا وضعت في سياقها من القصائد التي انتزعت منها ، ولكن لم يكن لنا بد من هذا الصنيع ، ونحن بصدد لم شعث صورة القوس المتناثرة في شعرنا القديم .

* * *

ومما يتم حديث القوس الحديث عن سهامها وربما ورد وصف السهام فيما عرضناه آنفا تابعا لوصف القوس ، وعنصرا من عناصر إبراز جودتها وقوتها لكن اللافت أن هناك عديدا من الشعراء خصوا السهام وحدها بعنايتهم فتحدثوا عن صناعتها واختيار

أعوادها ، وإحكام أفواقها ، وهذا ما سنعرض له في هذه الفقرة .

ونبدأ بأبيات لذي الإصبع العدواني يعرض فيها جانبا من صناعة السهام ، فيوضح كيف يحكم أفواقها - (موضع الوتر من السهم) وكيف ينتقي نصالها المجلوة ، وكيف يريشها بريش أسود لامع يتبع فيه الريشة ظهر الأخرى وذلك قوله[٣٣] :

إمَّا تري شكتي رُميحَ أبي سَعـ ... ـدٍ فقد أحملُ السّلاح مَعَا
السيفُ والقوسُ والكنانةُ قد ... أكملتُ فيها مَعَابلاً صنُعا
رَصَّع أفواقهـا وأترصهـا ... أنبلُ عدوان كلها صنَعَا
ثم كسَاهـا أحمَّ أسحمَ وبا ... صاً وكل الظواهر اتَبَعَا

وفي بيت فرد يصور خداش بن زهير ذلك الصائد الذي يتعهد سهامه فيختبرها فإذا رأى فيها زيغا قومه بمبراته[٣٤] :

إذا رابَهُ من سهمه زيغ قدةٍ ... يعوذُ بمبراةٍ له فهو حاشِرُهْ

وفي بيت فرد أيضا يشير بشر بن أبي خازم إلى خفة ريش السهام وعرض نصالها[٣٥] :

رَمَوْهُمْ فلمَّا استمكنَتْ من نحُورِهِمْ ... قِطاعٌ خِفَافٌ ريشُها والمعَابِل

أما امرؤ القيس السكوني فتنوع تصويره للسهم ، ملائما بين الصورة والموقف النفسي فسهام الصائد المتربص بحمر الوحش متوفرة بجعبة تلمع نصالها كأنها جمر مشتعل أو فتيل سراج متوهج ، تبدو في دقتها كالسيوف الدقيقة[٣٦] :

فلاقَى أبا بشرٍ على الماء راصداً ... به من زَمَاع الصَّيْدِ وردٌ وأفكَـلُ
يُقلبُ أشباهاً كأن نصَالهـا ... بعيجةُ جَمْرٍ أو ذُبَـالٌ مُفَتَّـلُ
فلما رضَى إغراضَها واغتَرارَها ... وواجَهَهُ من منْبِض القلب مقتـلُ
رماها بمذروب المكفّ كأنّـهُ ... سوى عودِه المحشوشِ في الرأسِ مغولُ

أما الصائد الذي أخفق في صيده فتبدو نصال سهامه وقد انضم بعضها إلى بعض كأنها خوافي حمام[٣٧] :

ولا قيّنَ جبّارَ بنَ حمزَة بعدَ ما أطابَ بشَكٍّ أيّ أمَر به أفعَلُ
يقلبُ أشباهـاً كأن نِصالها خوافي حَمَامٍ ضمّها الصّيف منزِلُ

وتجسد الحركة في صورة أبي المثلم الهذلي جانبا من صفات السهم الجيد حين تمسه الأنامل ويدرج على الظفر كأنه ممدلة[٣٨] :

مُشمرٌ وله بالكف مُحْدَلَةٌ وأصمَعُ نصلهُ في القدحِ مُعتَدلُ
يكاد يَدْرُجُ دَرْجاً أن يقلبهُ مسُّ الأنَامِلِ صاتٌ قِدحَهُ زَعِلُ

وأشار عدد من الشعراء إلى أماكن صناعة السهام الجيدة ، فذكروا يثرب وبلاد ، والرقم ، فأما يثرب وبلاد فقد ذكرهما الأعشى في قوله[٣٩] :

أنى تذكّر وُدَّهَا وصفاءَهَا سَفَها رأيتَ بصُوَّةِ الأثمادِ
مَنَعتْ قياسُ الماسخيةِ رأسَه بسهامِ يثربَ أو سهامِ بلادِ

و (يثرب وبلاد) قريتان في حجر اليمامة كما ذكر ياقوت في معجمه . أما (الرقم) وهي قريب من المدينة فينسب إليها لبيد سهامه في قوله[٤٠] :

رَقَميّاتٍ عَلَيْهَا ناهِضٌ تُكْلِحُ الأروَقَ منهم والأيَل

وينسب أبو ذؤيب سهامه إلى صعدة وهي قرية باليمن[٤١] :

فَرَمَى فألحقَ صاعديّاً مِطحراً بالكشْحِ فاشتملَتْ عليهِ الأضْلُعُ

- ٦ -

وكانت القوس وسهامها مادة استمد منها الشعراء عديدا من صورهم في موضوعات مختلفة ، ولعل وصف الحيوان من خيل وإبل ، وحمر وحشية وكلاب صيد كان له النصيب الأوفى من هذه المادة ، فنرى عامر بن الطفيل يشبه جياده الصابرة على الوجا بأقواس النبع والسأسم في يبسها[٤٢] :

ونحنُ الألى قُدْنا الجيادَ على الوَجا كما لوّحَ القواسُ نبعاً وسأسَمَا

ويجد الأعشى شبها جامعا بين خيله السريعة والقسي المتخذة من الشوحط[٤٣] :

أزجي سراعيف كالقسي من الـ شوحطِ صَكَّ المسفع الجملا

ويصور امرؤ القيس أضلاع فرسه المنحنية بحنو القسي[٤٤] :

له أيطلان جنبا عن شراسف كحنو القسيّ أنعمت أن تُوَطَّرا

ووجد الشعراء في انطلاق السهام مادة غنية لتجسيد سرعة الخيل ، فنرى أبا دؤاد الإيادي يشبه انطلاق فرسه وراء بعض الفرسان بسهم لا يعرف من رماه[٤٥] :

وقد يسَّروا منهم فارساً حديدَ السنان كميشَ الطلب
فألحقه وهو ساط بها كما تلحق القوس سَهْمَ العَرَب

وقريب من ذلك ما صنعه بشر بن أبي خازم في تشبيه خيله في انطلاقها بخروج السهام من الغرض[٤٦] :

فلما أسْهلتْ من ذي صَبَاحٍ وسَالَ بها المدافع والإكامُ
أثرن عجاجةً فخرجن فيها كما خَرجت عن الغرضِ السّهام

ومن الخيل إلى الإبل حيث نرى زهير بن أبي سلمى يتخير قوس الشريان ليشبه به ناقته الظامرة[٤٧] :

تظل تمطى في الزمام كأنها إذا بَركت قوس من الشريان

ويصنع الصنيع نفسه عمرو بن شأس ولكنه يتخير قسي السراء[٤٨] :

وأضحتْ على أعجاز عوجٍ كأنها قسي سراءٍ قرمت لم تعطل

ولا يرى الشماخ بن ضرار شبها لناقته التي براها الظمأ ودلج الليل إلا شرائج براها القواس[٤٩] :

كَأنَّها وقدَ بَرَاهَا الأخمَاس
ودلجُ الليلِ وهَادٍ قَيَّاسْ

وَمَرجَ الضَّفْر وَماجَ الأحْلاسْ
شَرَائِجُ النَّبْعِ بَرَاها القَـواسْ

وفي صورة أخرى نراه يشبه أضلاع ناقته بالقسي الماسخية[٥٠] :

فقربت مبراةً تخال ضلوعها من الماسخيّات القسي المؤترا

وهي صورة أعجبت قدامة بن جعفر ولعلها تذكر بصورة لطرفة بن العبد يشبه فيها أضلاع ناقته في صلابتها وانحنائها بالقسي[٥١] :

وطي محالٍ كالحني خلوفة وأجرنة لزت بدأيٍ منضد
كأن كناسي ضالةٍ يكنفانها وأطرُ قسيٍ تحت صُلبٍ مؤيدِ

على أن للشماخ صورة متفردة إذ يشبه صوت بغام الناقة حين يتردد في صدرها بصوت القوس حين ينطلق السهم ويرتد الوتر[٥٢] :

يَردُّ أنابيبُ الجِرَانِ بُغَامَها كما ارتدَّ في قَوْسِ السَّرَاءِ زَفيرُها

أما الحمر الوحشية فقد كان لها نصيب من مادة القوس فنرى زهير بن أبي سلمى يشبه الأتن التي طواها البقل فلا تشرب الماء بالقسي المتخذة من شجر السراء[٥٣] :

ثلاث كأقواس السَّراء وناشط قد اخضرَّ من لسّ الغَمير جحافله

وإلى قريب من هذا ذهب الأعشى ولكنه تخير قوسا من شجر الضال[٥٤] :

لاحه الصَّيفُ والصيالُ واشفا ق على صعدة كقوس الضال

واعتمد الشماخ على قوس السراء في تصوير الأتان[٥٥] :

أضرَّ بمقلاةٍ كثيرٍ لغُوبُها كقوسِ السَّراءِ نَهْدَةِ الجنْبِ ضَمْعَجِ

* * *

ووجد الشعراء في السهام مادة لتصوير سرعة كلاب الصيد ، فهذا الأعشى يشبه سرعة الكلاب الضارية بسرعة النبال وذاك قوله[٥٦] :

حتى إذا ذرَّ قرنُ الشمس صَبحها ذوالَ نبهان يبغى صحبُه المتَعَا
بأكلب كسراعِ النبل ضاريـــةٍ ترى من العد في أعناقها قطعا

وقريب من هذا قول لبيد بن ربيعة[٥٧] :

عوابسَ كالنّشابِ تَدْمَى نحُورُهَا يَرَيْنَ دَماءَ الهاديات نَوافِلا

* * *

وبعيداً عن دائرة الحيوان كان للقوس وسهامها توظيفات مختلفة ، فقد وظفها الشعراء في تصوير المنية والكلام والهوى ، أما بخصوص المنية فقد جعلوا لها سهاما صائبة لا تطيش كما نرى في قول بشر بن أبي خارم يتخيل ابنته تؤمل عودته بينما هو يستقبل الموت[٥٨] :

تؤمّل أن أؤوب لها بنهبٍ ولم تعلم بأن السَّهمَ صابَا

وإذا كان السهم في صورة بشر يمكن أن يفهم على الحقيقة فما هكذا سهام لبيد في صورته[٥٩] :

صادفْنَ منها غرَّةً فأصَبْنَها إنَّ المنايا لا تطيشُ سِهَامُهَا

وقريب من هذا قول الخنساء[٦٠] :

رمتنا فلم يخطنا سهمها كذاك الحوادث حينا فحينا

ومن القوس وسهامها يستمد دريد صورته في تجسيد أيام معمر يقترب من النهاية[٦١] :

أصبحت أقذفُ أهدافَ المنون كما يرجى الدريئة أدنى فوقه الوتر

وأما الكلام فقد استمد الشعراء عديدا من الصور من القوس وأسهمها للجارح منه، وفي أبيات للبيد بن ربيعة نرى عدة صور من مادة القوس ، فالألسن كالنبل ، والكلام كرشق السهم الجيد ، والتقاذف بالكلام يشبه الانتضال بالنبل[٦٢] :

إذا دَعَتْني عامرٌ أنصرُهَا فالتقى الألسَنُ كالنّبل الدُّوَل

فرميْت القوم رشقاً صائباً ليس بالعُضلِ ولا لمتثعلِ
رَقميَّاتٍ عليها نَاهِضٌ تكلحُ الأرْوَق منهم والأيَل
فانتضلنا وابن سلمى قاعدٌ كعتيق الطير يُغضي ويجل

أما خداش بن زهير ، فيجعل الكلام سهاما تراش وتبري في قوله[٦٣] :

أريشُ وأبرى للظلومِ مَعَابلاً إذا خرَجت من بَدْئها لم تُنزع

* * *

وأما الحب والهوى فمن مادة القوس أخذ الشعراء عددا من الصور في بيان فعل كلام المحبوب ، ووقع نظراته ، فيصور المثقب العبدي وقع كلامه على قلوب الحسان بوقع السهم المريش[٦٤] :

بتلهيةٍ أريشُ بها سهامي تبذ المرشِقات من القطينِ

أما نظرة « هر » صاحبة امرئ القيس فقد كانت غداة الرحيل سهما أصاب الفؤاد[٦٥] :

رمتني بسهمٍ أصابَ الفؤادَ غداةَ الرحيلِ فلم أنتصر

أما صاحبة بشر بن أبي خازم فنظراتها سهام لا تطيش بينما تطيش سهام من يريدها[٦٦] :

ليالي لا تطيشُ لها سهامٌ ولا تَرْثو لأسْهُم من رَماهَا

وفي صورة أخرى يصور فعل الدهر به وبصاحبته حيث أمست تطيش سهامها بعد أن كانت صائبة مدة من الدهر[٦٧] :

فإنْ تَكُ نبلها طاشَتْ ونَبْلي فقد نَرْمي بها حقباً صيَابا
فتصطادُ الرِّجالَ إذا رَمتْهُمْ واصطادُ المخبَّأَة الكَعَابا

* * *

ونقع في شعر هذيل على عدة صور مأخوذة من القوس ، وهي صور لها خصوصية تتفق مع خصوصية بيئة هذيل ، فأبو ذؤيب الهذلي يشبه الغائص على الدر بالسهم الذي قشر حتى غدا دقيقا ، وذلك قوله[٦٨] :

فَجاءَ بِهَا بعدَ الكلالِ كأنهُ مِنَ الأيْنِ محراسٌ أقذُّ سَجيحُ

وقريب من ذلك تشبيهه ضلوع مشتار العسل - وقد ملكه الخوف - بسهام نصلت من قطبها[٦٩] :

فَحَطَّ عَلَيْهَا والضُّلوعُ كَأنَّها مِنَ الخوفِ أمثَالُ السِّهامِ النَّواصِلِ

وفي صورة ثالثة يشبه النحل في سرعتها بنصال السهام[٧٠] :

إذَا نَهَضَتْ فيهِ تصَعَّدَ نَفْرَهَا كقترِ الغِلاءِ مُستدراً صيَابُها

* * *

وتبقى بعد ذلك كله صورة فذة للأعشى لا قرين لها وذلك حين يصور ماء قليب آجن يعلوه الريش فيشبه ذلك الريش بمنشور النبال[٧١] :

وقليبٍ آجنٍ كأنَّ من الريـ ـش بأرجائه لقوط نصالِ

* * *

وبعد ، فقد كانت هذه محاولة لاستجلاء صورة القوس في شعرنا القديم ، وقد استخلصناها - على جهد ومشقة ، وبعد استقراء واسع لدواوين الشعراء - آملين أن نكون قد قدمنا للقارئ ما ينفع .

الهوامش

(١) شرح ديوان أبي تمام ، ص ٧٦ .

(٢) جمهرة الأمثال للعسكري ٢/٣٢٤ .

(٣) صحيح البخاري ٣/٢٢٧ باب ٣٨ ، المد : الذي يقوم عند الرامي فيناوله سهما بعد سهم أو يرد عليه النبل بعد الهدف .

(٤) منتخب كنز العمال في سنن الأقوال والأمثال ٢/٣١٠ .

(٥) ديوان أوس بن حجر ص ٨٢ - ٨٩ .

(٦) مبضوعة : أي مقطوعة .

(٧) قرونته : نفسه .

(٨) التبكل : التغنم .

(٩) الاشتقاق لابن دريد ص ٤٩٠ ، وجمهرة أنساب العرب لابن حزم ٣٧٦ .

(١٠) الإلهاب : جمع لهب : وهو الفرجة والهواء يكون بين الجبلين .
النيق : المشرف من الجبل ، المهبل : المهوى والمهلك .

(١١) العجس : موضع كف الرامي من كبد القوس .

(١٢) الجفير : الكنانة وحشوها السهام ، تنطع : تحذق في صناعته وتأنق وكذلك تنبل.

(١٣) ديوان أوس بن حجر ص ٩٤ - ٩٩ .

(١٤) ديوان الشماخ بن ضرار الذبياني ص ١٧٣ - ١٩٣ .

(١٥) الشعر والشعراء ، ٣١٦ .

(١٦) القوس العذراء : أ. محمود محمد شاكر ص ٣٠ .

(١٧) النواحز : التي بها نحاز : وهو داء يأخذ الدواب والإبل في رئاتها فتسعل سعالا شديداً .

(١٨) الجلائز : عقبات تلوى على كل موضع من القوس لتشدها من غير عيب بها .

(١٩) الغيل : الشجر الكثيف الملتف ، متلاحز : متضايق دخل بعضه في بعض .

(٢٠) اعتمدنا في تقديم هذا البيت والأبيات الثلاثة بعده على الترتيب الذي ارتآه الشيخ محمود شاكر - رحمه الله - ، - وهو في نظرنا - ترتيب يدل على بصر وذوق ، فتأخر هذه الأبيات إلى ما بعد مشهد البيع كما أوردته الروايات يجعلها شاذة نافرة عن السياق .

(٢١) رواية جمهرة أشعار العرب ٢/٨٣٣ .

(٢٢) هذه الفاء العاطفة التي استخدمها الشاعر يسميها النحويون « الفاء الفصيحة » ، أي التي تفصح عن معطوف عليه محذوف قبلها ، وعلى هذا يكون تقدير الكلام فخطر له خاطر البيع

فوافى بها أهل المواسم أو ما يماثل ذلك .

(٢٣) ديوان عمرو بن قميئة من ١٤٩ ، قضب : القضبه ، قدح من نبع نبعة يجعل منه السهم ، مناصبها : نصاب كل شيء أصله ، النضي : نصل السهم .

(٢٤) ديوان امرئ القيس ص ١٢٣ ، متلج كفيه : أي يدخل كفيه في القتر ، وهي بيوت الصائد التي يكمن فيها لئلا يفطن له الصيد فينفر منه .

(٢٥) المصدر نفسه ص ٣٠٥ ، اللاطئ : الذي يلزم بطن الأرض ويخفي نفسه عن الوحش لئلا تنفر، والطمر : الوثاب ، المرهفات : السهام ، الأسناخ : النصول .

(٢٦) ديوان أوس بن حجر ص ٧١ .

(٢٧) شرح ديوان زهير بن أبي سلمى ص ٣٧٧ ، الشرع : الوتر الدقيق ، تستشزي : من أشزاه ، ناحية كذا : أماله ، محدلة : أعلاها أوسع من أسفلها ، القنواء : القوس الممدود به ، خلقاء : ملساء ، عرش : طويله .

(٢٨) ديوان الشنفرى ص ٥٤ ، العجس : مقبض القوس ، المطنف : من يعلو الطنف وهو الجبل .

(٢٩) المصدر نفسه ص ٤٠ .

(٣٠) شرح ديوان عنترة بن شداد ص ٢٣١ ، المؤتف : الممدد الطرف .

(٣١) شرح أشعار الهذليين ١٦٢/١ .

(٣٢)- ديوان الشماخ بن ضرار الذبياني ص ١٣٣ .

(٣٣) ديوان ذي الأصبع العدواني ص ٦٠ - ٦١ ، المعابل : جمع معلبة وهي النصل .

(٣٤) شعر خداش بن زهير ص ٥١ ، القذة : واحدة القذذ وهو ريش السهم .

(٣٥) ديوان بشر بن أبي خازم ص ١٧٥ ، القطاع : جمع قطع وهو السهم .

(٣٦) قصائد جاهلية نادرة ص ١٤٢ ، زماع الصيد : سرعته ، الأفكل : الرعدة ، أشباه : سهام متشابهة ، مذروب : حاد المحشوش : السهم الذي يلزقه به القذذ من نواحيه .

(٣٧) المصدر نفسه ص ١٤٣ .

(٣٨) شرح أشعار الهذليين ٢٧٤/١ .

(٣٩) ديوان الأعشى ص ١٨١ .

ومعجم البلدان ، يثري ٤٣٠/٥ ، بلاد ٤٧٦/١ وبلوغ الأرب ٦٥ ، والعمدة ٢٣٢ .

(٤٠) شرح ديوان لبيد ص ١٩٥ ، ومعجم البلدان : رقم ٥٨/٣ واللسان ، رقم

(٤١) شرح أشعار الهذليين ٢٤/١ ومعجم ما استعجم للبكري ٨٣٢/٢ - صعدة .

(٤٢) ديوان شعر عامر بن الطفيل ص ١١٧ ، الساسم : شجر من الأبنوس ، الوجا : أن يشتكي الفرس حافره .

(٤٣) ديوان الأعشى الكبير ص ٢٨٣ .

(٤٤) ديوان امرئ القيس ص ٢٣٦٧ .

(٤٥) ديوان أبي دؤاد الأيادي ٢٩٣ ، الساطي من الخيل : البعيدة الشحوة والخطو .

(٤٦) ديوان بشر بن أبي خازم ص ٢١٠ .

(٤٧) شرح ديوان زهير بن أبي سلمى ص ٣٦٣ .

(٤٨) شعر عمرو بن شأس الأسدي ص ٤٥ ، قرّمت : أي عممت ، مزم القدح : عجمه .

(٤٩) ديوان الشماخ بن ضرار الذبياني ص ٣٩٩ - ٤٠٠ .

مرج : قلق ، الضفر : نسيج من الشعر عريض يشد في وسط الناقة ، الأحلاس : جمع حلس وهو الكساء الذي يكون تحت الرجل والقتب يلي ظهر البعير أو الناقة .

(٥٠) المصدر نفسه ص ١٣٢ - ١٣٣ .

(٥١) ديوان طرفة بن العبد ص ١٦ ، المحال : فقار الظهر ، الجران : باطن الحلقوم ، الدأي : فقار العنق .

(٥٢) ديوان الشماخ بن ضرار ص ١٦٥ .

(٥٣) شرح ديوان زهير بن أبي سلمى ص ١٣١ .

(٥٤) ديوان الأعشى الكبير ص ٥٧ ، الصيال : مصدر صاول ، مصاولة الفحول من حمر الوحش ، الصعدة : القناة المستوية تنبت فلا تحتاج إلى تثقيف وهي الآتان على التشبيه .

(٥٥) ديوان الشماخ بن ضرار الذبياني ص ٩٠ ، الضمعج : التامة الخلق . اللغوب : اللعاب .

(٥٦) ديوان الأعشى الكبير ص ١٥٥ - ١٥٦ .

(٥٧) شرح ديوان لبيد بن ربيعة ص ٢٤٠ .

(٥٨) ديوان بشر بن أبي خازم ص ٢٥ .

(٥٩) شرح ديوان لبيد بن ربيعة ص ٣٠٨ .

(٦٠) ديوان الخنساء ص ٣٥٢ .

(٦١) ديوان دريد بن الصمة الجشمي ص ٦٦ ، الدريئة : الحلقة التي يتعلم الرامي الطعن والرمي فيها ، الفوق : شق رأس السهم حين يقع الوتر .

(٦٢) شرح ديوان لبيد بن ربيعة ص ١٩٤ - ١٩٥ ، الرشق : أن يرمي السهام كثيرة دفعة ، العصل : المعوجة ، المقتعل : السهم لم يبر برياً جيداً . ناهض : ريش فرخ نسر حين ينهض وهو أجود ، الأروق : الطويل الأسنان . الأيل : الذي لزقت أسنانه .

(٦٣) شعر خداش بن زهير ، ص ٨٥ .

(٦٤) ديوان المثقب العبدي ص ١٦١ .

(٦٥) ديوان امرئ القيس ص ١٢٠ .

(٦٦) ديوان بشر بن أبي خازم ص ٢٢٠ .

(٦٧) المصدر نفسه ص ٣١ ، صيابا : جمع صائب .

(٦٨) شرح أشعار الهذليين ١٣٤/١ ، سحيج : الذي سحجه الحصى وقشره وجرده ، المحراس : القدح وهو السهم .

(٦٩) المصدر نفسه ١١٤/١ .

(٧٠) المصدر نفسه ٥٠/١ ، تصعد نفرها : أي شق على نفر منها وأفتره .

(٧١) ديوان الأعشى الكبير ص ٥٣ ، آجن : آش راكد .

المصادر والمراجع

١- الاشتقاق : ابن دريد ، أبو بكر محمد بن الحسن (-= ٢١٦هـ) تحقيق : عبد السلام هارون، القاهرة ١٩٨٠م .

٢- بلوغ الأدب في معرفة أحوال العرب : الألوسي ، السيد محمود شكري الألوسي البغدادي ، عني بشرحه وتصحيحه : محمد بهجة الأثري ، دار الكتب العلمية ، بيروت (د.ت) .

٣- جمهرة الأمثال : أبو هلال العسكري ، حققه : محمد أبو الفضل إبراهيم ، عبد المجيد قطامش، ط. الأولى ، المؤسسة العربية الحديثة ، القاهرة ١٩٦٤م .

٤- جمهرة أنساب العرب : ابن حزم ، أبو محمد علي بن أحمد الأندلسي (- ٤٥٦هـ) تحقيق : عبد السلام هارون ، ط ، دار المعارف ١٩٦٢م .

٥- جمهرة أشعار العرب في الجاهلية والإسلام ، أبو زيد محمد بن الخطاب القرشي ، حققه وعلق عليه : الدكتور محمد علي الهاشمي ، ط. الأولى ، لجنة البحوث والتأليف والترجمة ، جامعة الإمام محمد بن سعود ١٩٧٩م .

٦- ديوان الأعشى الكبير ، شرح و تعليق الدكتور محمد محمد حسين ، ط. السابعة مؤسسة الرسالة ، بيروت ، ١٩٨٣ .

٧- ديوان امرئ القيس ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ، ط. المعارف ١٩٨٤م .

٨- ديوان أوس بن حجر ، تحقيق الدكتور محمد يوسف نجم ، ط. دار صادر ، بيروت ، ١٩٧٩م.

٩- ديوان بشر بن أبي خازم الأسدي ، تحقيق الدكتور عزة حسن ، مطبوعات مديرية إحياء التراث القديم ، دمشق ، ١٩٧٢م .

١٠- ديوان الخنساء ، شرحه : ثعلب ، أبو العباس ، أحمد بن يحيى بن سيار الشيباني النحوي ، ت ٢٩١هـ ، حققه : الدكتور أنور أبو سويلم ، ط. دار عمار ١٩٨٨م .

١١- ديوان دريد بن الصمة الجشمي ، جمع وتحقيق وشرح : محمد خير الدين البقاعي ، ط. دار قتيبة ، دمشق ١٩٨١م .

١٢- ديوان ذي الأصبع العدواني ، جمعه وحققه : عبد الوهاب محمد العدواني ، ومحمد نائف الدليمي ، ط. مطبعة الجمهور ، الموصل ١٩٧٣م .

١٣- ديوان شعر عامر بن الطفيل العامري ، رواية أبي بكر محمد بن القاسم الأنباري عن أبي العباس أحمد بن يحيى ثعلب ، ترجمة : شارلز ليال ، ط. المتحف البريطاني ، ليدن ، بريل .

١٤- ديوان شعر المثقب العبدي ، عني بتحقيقه وشرحه والتعليق عليه : حسن كامل الصيرفي ، ط. معهد المخطوطات العربية ، جامعة الدول العربية ، ١٩٧١م .
١٥- ديوان الشماخ بن ضرار الذبياني : حققه وشرحه : صلاح الدين الهادي ، ط. دار المعارف ، مصر ١٩٧٧م .
١٦- ديوان الشنفرى ، عمرو بن مالك ، جمعه وحققه : د. إميل بديع يعقوب ، ط. دار الكتاب العربي ، بيروت ١٩٩١م .
١٧- ديوان طرفة بن العبد ، شرح الأعلم الشنتمري (- ٤٧٦هـ) تحقيق : درية الخطيب ولطفي الصقال ، مطبوعات مجمع اللغة العربية ، دمشق .
١٨- ديوان عمرو بن قميئة ، تحقيق : حسن كامل الصيرفي ، ط. معهد المخطوطات العربية ، القاهرة ١٩٦٥م .
١٩- شرح أشعار الهذليين ، السكري ، أبو سعيد الحسن بن الحسين (٢٧٥هـ) حققه : عبد الستار أحمد فراج ، راجعه : محمود شاكر ، مطبعة المدني ١٩٦٥م .
٢١- شرح ديوان أبي تمام ، ضبط معانيه وشروحه : إيليا حاوي ، ط. الأولى ، دار الكتاب اللبناني، بيروت ١٩٨١م .
٢٢- شرح ديوان زهير بن أبي سلمى ، صنعه الإمام أبي العباس أحمد بن يحيى بن زيد الشيباني ثعلب ، نسخة مصورة من طبعة دار الكتب المصرية ١٩٤٤م ، الناشر الدار القومية للطباعة والنشر ، القاهرة ١٩٦٤م .
٢٣- شرح ديوان عنترة بن شداد ، تحقيق : محمد سعيد مولوي ، المكتب الإسلامي ، دمشق ، ١٩٧٠م .
٢٤- شرح ديوان لبيد بن ربيعة العامري ، حققه : إحسان عباس ، وزارة الإرشاد والأنباء ، الكويت ١٩٦٢م .
٢٥- شعر أبي دواد الإيادي ، جمعه : غوستاف فون غرنباوم ، ضمن دراسات في الأدب العربي ، ط. بيروت ١٩٥٩م .
٢٦- شعر خداش بن زهير ، صنعه : الدكتور يحيى الجبوري ، مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق ١٩٨٦م .
٢٧- شعر عمرو بن شأس الأسدي ، صنعه الدكتور يحيى الجبوري ، ط. دار القلم ، الكويت ١٩٨٣م .
٢٨- صحيح البخاري ، محمد بن إسماعيل البخاري ، ط. دار الدعوة ، استنبول ١٩٨١م .
٢٩- العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده : ابن رشيق ، أبو علي الحسن بن رشيق القيرواني

(-٤٥٦هـ) تحقيق : محمد محيي الدين عبد الحميد ، ط. الرابعة ، دار الجيل ، بيروت .
٣٠- قصائد جاهلية نادرة : الدكتور يحيى الجبوري ، ط. الأولى ، مؤسسة الرسالة ، ط. الثانية ١٩٨٨م .
٣١- القوس العذراء : أبو فهر محمد محمد شاكر ، الناشر دار المدني بجدة .
٣٢- لسان العرب : ابن منظور ، أبو الفضل جمال الدين محمد بن المكرم الأنصاري (- ٧١١هـ) ط. دار المعارف (د.ت) .
٣٣- معجم البلدان : ياقوت ، شهاب الدين أبو عبد الله الحموي (١٦٢هـ) ط. دار صادر بيروت (د.ت) .
٣٤- معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواضع ، تأليف : عبد الله بن عبد العزيز البكري الأندلسي (- ٤٨٧هـ) ، حققه وضبطه : مصطفى السقا ، عالم الكتب ، بيروت (د.ت) .
٣٥- منتخب كنز العمال في سنن الأقوال والأفعال ، تأليف : علي بن حسام الدين الشهير بالمتقي الهندي (- ٩٧٥هـ) ط. الأولى دار احياء التراث العربي ، بيروت ١٩٩٠م .